البحر المتوسط: الأهمية الحضارية والاستراتيجية.

The Mediterranean: Civilizational and Strategic Importance.

د.نادية أمينة كاري[1]، أ. يونس مسعودي[2]

[1] جامعة تلمسان (الجزائر)، nadiaamina.kari@univ-tlemcen.dz

[2] جامعة تلمسان (الجزائر)، younes.messaoudi@univ-tlemcen.dz

تاريخ الاستلام: 2019/03/30 تاريخ القبول: 2019/08/30 تاريخ النشر: 2019/09/15

ملخص:

تهدف هاته الورقة المعنونة: "البحر المتوسط: الأهمية الحضارية والاستراتيجية"، إلى إبراز الأهمية التي يختص بها حوض البحر المتوسط على المستوى الحضاري على مر التاريخ، وعلى المستوى الاستراتيجي، كون البحر المتوسط يتوسط ثلاث قارات (إفريقيا–أروبا– آسيا) وبذلك هو يشكل المعبر الرئيسي للمواصلات البحرية بين المحيطات، كل هذا ما زاد من أهميته الجيوسياسية، كما أن البحر المتوسط ذو أهمية اقتصادية.

الكلمات مفتاحية: البحر المتوسط، الحضارة المتوسطية، الاتحاد الأوروبي، شمال إفريقيا.

Abstract: This paper, entitled: "The Mediterranean: Civilizational and Strategic Importance", aims to highlight the importance of the Mediterranean Basin at both civilizational and strategic levels. It is a junction of cultures and peoples throughout history, mediating three continents; Africa, Europe and Asia. It is also the main crossing point for marine transportation, a location which gives it a particular economic importance.

Keywords: Mediterranean, Mediterranean civilization, European Union, North Africa.

المؤلف المرسل: مسعودي يونس، **الإيميل:** younes.messaoudi@univ-tlemcen.dz

كاري نادية ، مسعودي يونس

مقدمة:

يعد البحر المتوسط من بين أهم البحار في العالم إن لم نقل أهمها على الإطلاق، نظرا لموقعه الاستراتيجي الذي يتوسط به العالم، كما أنه يعتبر فضاء دوليا تحدث فيه الكثير من المتغيرات المؤثرة في النظام الدولي بشكل عام، وبالتالي: فيما تتمثل كل من الأهمية الحضارية والاستراتيجية للبحر المتوسط؟

أولا: الأهمية الجغرافية والتاريخية:

عند مطالعة الكتب التي تتكلم عن الحضارات الكبيرة التي مرّت على تاريخ هذا العالم، نجد أنها جميعها تؤكد على أن هذه الحضارات كانت تطل على البحر المتوسط، وهذا الأخير الذي يعتبره الكثير من الباحثين والكتاب على أنه كان السبب الرئيسي في قوة هذه الحضارات التي تعاقبت على المنطقة، وبالتالي كانت طبيعة موقعه الجغرافي عاملا مساعدا في ذلك، وهذا ما سيتم التعرف عليه من خلال هذا العنصر.

أ. الموقع الجغرافي:

تعود نشأة البحر المتوسط إلى أن بدأ تشكيله منذ منتصف عصر "المايوسين" تقريبا أي منذ قرابة منتصف الزمن الجيولوجي الثالث، تلك الفترة التي ظهرت فيها الثدييات العليا، ومعظم النباتات الحديثة، والعمر التقريبي للزمن الجيولوجي الثالث يقدر بستين مليون سنة خلت[i]؛ وعن دراسة البحر المتوسط ليست وليدة اليوم فـ "ابن الفقيه الهمداني" الذي صنف كتاب البلدان حوالي عام 902م فيرى أن البحار أربعة: البحر المغربي الدبوري الرومي وهو من انطاكية إلى جزائر السعادة البحر المتوسط[ii]، وبالتالي فللبحر المتوسط عدة تسميات قديمة، حيث سمي بالرومي لأن الرومان كانوا يسمونه بحرنا في ظل قوة الحضارة الرومانية كما كان العرب يسمونه، بالإضافة إلى البحر الشامي والمغربي، لكن في الوقت الحالي التسمية الغالبة والمتداولة هي البحر المتوسط، والمميز في البحر المتوسط هو اسمه الذي يعبر عنه ويعرّفه، بحيث سمي بهذا الاسم لأنه يتوسط الكرة الأرضية ويقع بين ثلاث قارات هي أوروبا من الشمال وآسيا من الشرق وإفريقيا من الجنوب، وتعتبر هذه التسمية قديمة حيث أول من أطلقها عليه اليونانيين[iii]؛كما يتصل من الشرق بالمحيط الأطلسي عبر مضيق جبل طارق.

البحر المتوسط: الأهمية الحضارية والاستراتيجية.

تبلغ مساحة البحر المتوسط (2.510.000 كم)، وتبلغ مساحة البحر الأسود الذي يعتبره الكثيرون جزء من البحر المتوسط (448.000 كم). وإن الكثير من أذرع البحر المتوسط كبير إلى درجة يمكن أن تكون الذراع الواحدة منها بحرا، وتشمل هذه الأذرع كلا من البحر الأدرياتيكي وبحر إيجة والأيوني، والتيراني، يبلغ أقصى طول للبحر المتوسط حوالي (3.540 كم)، بين مضيق جبل طارق والإسكندرونة في تركيا، ويبلغ أقصى عرض للبحر المتوسط 1600 كم بين ليبيا وكرواتيا؛ كما ينقسم قاع البحر المتوسط بواسطة سلسلة جبلية تحت الماء تمتد بين صقلية وتونس إلى حوضين، غير أن الحوض الشرقي أعمق من الحوض الغربي، ويبلغ متوسط عمق البحر 1.500م، وأقصى عمق له هو 5.093م، وذلك في المنخفض الهيليني الواقع بين اليونان وإيطاليا[iv].

فيما يخص مناخ البحر المتوسط الذي يعتبر من بين أكثر المناخيات في العالم ملائمة للعيش، بحيث يمتاز مناخ البحر المتوسط بشتاء معتدل ممطر لا ينخفض أثناءه المتوسط اليومي لدرجة الحرارة في معظم المناطق انخفاضا مما يؤدي إلى توقف نمو معظم أنواع النباتات، أما الصيف فيمتاز بحرارته المرتفعة وجفافه، ولكن غابات البحر المتوسط تتكون في جملتها من أشجار عريضة الأوراق دائمة الخضرة لا تنفض أوراقها بسبب الجفاف[v].

ب. الأهمية التاريخية:

على مر العصور كان البحر المتوسط يشكل وحدة حضارية ومنطقة تعاقبت عليها أهم الحضارات في التاريخ الحديث والقديم، بحيث أنه في أي جهة من جهات البحر المتوسط تجد آثار الحضارات القديمة، تعبر عن الإرث التاريخي لهذا البحر الذي كان عاملا مساعدا ومهما في قوة أي حضارة؛ وبما أن الإنسان هو أساس أي حضارة تقوم، فإن منطقة المتوسط كانت من بين أولى المناطق التي ظهر فيها الإنسان، وذلك في العصر الحجري القديم أي ما قبل التاريخ، وكان الإنسان في هذه الفترة في منطقة المتوسط يعتمد على الحجر والنقش عليه، وكان يتصرف مثل الحيوان في هذه الفترة بحيث لم يكن له نمط عيش محدد، وكانت حياته تعتمد على الافتراس والنهب، ويقول الأسترالي Jordan chield أن الإنسان استطاع

بمرور الزمن والنمو الديمغرافي له، أن يطور نمط حياته بحيث بدأ يستقر وينشأ القرى، كما استطاع أن يتكيف مع بيئة البحر المتوسط[vi].

ويعتبر البحر المتوسط "مهد الحضارة"، Berceau De Civilisation، وهذا تعبيرا عن الحضارات الكثيرة التي نشأت فيه، والأكيد في تاريخ المتوسط هو أنه يدمج تاريخ العديد من الشعوب والحضارات، وذلك من قبل القرن السادس قبل الميلاد، بالإضافة إلى تاريخ البحر المتوسط، كونه ذو بعد ديني بحيث يعتبر مكان ازدياد الديانات التوحيدية أي السماوية وهي: اليهودية والمسيحية والإسلام. وهذا ما كان سببا في كثير من الأحيان للحروب والصراعات، كالحروب الصليبية، كما أنه توجد الأماكن المقدسة بهذه الديانات روما والقدس.

إذا، إن هذا التنوع الثقافي والديني جعل من منطقة المتوسط منطقة اجتماعية ثقافية –socio cultural، فانتشار الديانات السماوية تدريجيا جعل منه مركزا للحياة الدينية، بحيث انتشرت في جميع أنحاءه المعابد والكنائس والمساجد، بحيث كانت الديانة المسيحية منتشرة على نطاق واسع في ظل قوة الإمبراطورية الرومانية، لكنه انحصر انتشاره مع تقهقر الإمبراطورية الرومانية، هذا ما فسح المجال للديانة الإسلامية والتي انتشرت من شرق آسيا حتى إسبانيا، وذلك بسبب الفتوحات الإسلامية[vii].

ومن بين مظاهر التمازج الحضاري في منطقة المتوسط، ففي الجانب الثقافي الذي تزاحمت فيه التيارات عابرة البحر في كل اتجاه بين مصر وكريت وبلاد اليونان وقرطاجة وروما، بحيث أن الثقافة اليونانية لم تقتصر على البلاد اليونانية الأصلية فقط وإنما انتقلت حتى إلى مصر واتخذت مواطن لها في كل مكان على الشواطئ الآسيوية والإفريقية، كذلك بالنسبة لمختلف الحضارات[viii].

وباعتبار الحضارة اليونانية من أعرق الحضارات في التاريخ، فإن تأسيسها على السواحل الشمالية للبحر المتوسط كان له الأثر الواضح على جميع مناطق البحر المتوسط، فهذه الحضارة التي اشتهرت بعلمائها وعلومها، ونظمها السياسية ونظام دولة المدينة خاصة، ومدنها ذات الطابع العمراني المميز

البحر المتوسط: الأهمية الحضارية والاستراتيجية.

استطاعت أن تصدر حضارتها لشرق وشمال وجنوب المتوسط؛ كذلك من بين الحضارات الكبيرة التي كان البحر المتوسط مركزا لها نجد الحضارة الرومانية التي تعتبر من بين أعرق الحضارات، وتعد الحضارة الرومانية أو روما القديمة؛ كما تعتبر الحضارة المصرية من بين الحضارات التي يشهد لها التاريخ بأنها كانت مميزة عن الحضارات الأخرى، وذلك لعدة عوامل، بحيث قامت هذه الحضارة حول المنطقة التي تسمى دلتا النيل وهي المنطقة التي تحيط بمصب النيل في البحر المتوسط، وتتميز بخصوبة الأرض والبحر المتوسط ومناخه المعتدل، مما ساعد على استقرار السكان وتشجيعهم على الإبداع[ix].

وكذلك من بين الحضارات التي توارثت البحر المتوسط نجد الحضارة الفينيقية التي كانت تمتد من شرق البحر المتوسط في بلاد الشام إلى غربه، بحيث تتفق الوثائق الكتابية التي تناولت موضوع أصل الفنيقيين وتسميتهم بأن هؤلاء ليسوا من جنس السكان المحليين، وإنما ظهروا في شمال منطقة الهلال الخصيب منذ بداية الألف الثالث (ق.م)، ثم نزحوا بعد ذلك إلى الساحل السوري واختلطوا بسكانه الذين ينتمون إلى أرومة جنس البحر المتوسط[x]؛ ومع ذلك هناك عدة اختلافات بين الباحثين في أصل سكان الحضارة الفينيقية، حيث أن الدويلات الفينيقية كانت تعيش في حالة صراع وحروب بسبب الموقع الإستراتيجي الذي كانت تختله، وزيادة على ذلك فوجود الحواجز الطبيعية التي تجعل من المواصلات صعبة عبر الساحل الفينيقي جعل الفينيقيين يتبعون نظم الحكم التي تعتمد على مدينة الدولة، والتي كانت متنافرة في حالة السلم ومتحدة في حالة الحرب؛ ومن أهم المدن الفينيقية نجد مدينة جبيل وصيدا وصور، وطرابلس وبيروت[xi].

ويمكن تلخيص العوامل الاجتماعية التي ساعدت الحضارة الفينيقية على التوسع في البحر المتوسط فيمكن التطرق إلى النظم السياسة المتبعة من طرفهم، بحيث كان هناك تنافس كبير على الحكم بين الطبقات الحكم في المدن الفينيقية[xii].

وللبحر المتوسط تاريخ مع الحضارة العربية الإسلامية، التي كانت تدرك مدى أهمية السيطرة على هذا البحر من أجل نشر الإسلام وبسط سيطرتها ونفوذها في المنطقة، وبدأ ذلك بسقوط الإسكندرية في قبضة الفاتحين العرب عام 241م، وموت "هرقل"، مرحلة جديدة في تاريخ البحر المتوسط[xiii].

واستمر الصراع بين العرب والبزنطيين في البحر المتوسط وكانت هناك عدة معارك بينهم، بحيث استطاع البزنطنيون استعادة قوتهم البحرية انطلاقا من القسطنطينية، لكن في ذلك الوقت وتحديدا بين سنتي 273 و279م، استطاع العرب المستقرون في القيروان والذين جاؤوا من مصر وسوريا وبعد عدة غارات وغزوات في شمال إفريقيا استطاعوا من خلالها إخضاع قبائل البربر ونشروا فيها الإسلام، وذلك بقيادة عقبة ابن نافع الذي استطاع أن يصل حتى الحدود الغربية للمتوسط وبالظبط إلى طنجة المغربية، لكن هذا لم يدم طويلا وعاد البزنطينيون للسيطرة على المنطقة من جديد بمساعدة بعض الأهالي، لكن حسم العرب الأمر في الأخير عن طريق موسى بن نصير وطارق بن زياد الذي استطاع أن يفتح إسبانيا ويتوغل في أوروبا[xiv].

كما أنه ظهرت في البحر المتوسط خلال التفاعل بين الحضارات والصراع من أجل السيطرة على البحر المتوسط، ظاهرة القرصنة التي كانت شائعة في المنطقة، بحيث كانت هذه الطريقة ذات طابع شرعي عتد الفينيقين وجميع الحضارات التي تعاقبت على المنطقة وكان لها قانون خاص بها، بحيث كان يعتبرها البربر هي قبل كل شيء ومن أجل تبريرها أعطوها الطابع الديني وهي نوع من الجهاد البحري وتدخل في إيطار الحروب الدينية بين القراصنة المسلمون والمسيحيين، بحيث كان القراصنة يستولون على الأرباح التي يحققها التجار في منطقة المتوسط...[xv].

ثانيا: الأهمية الاستراتيجية:

إن الإرث الحضاري الخاص بالبحر المتوسط، لما هو إلا دليل قاطع على الأهمية التي كانت تولى لهذا البحر، ومن المعروف أن قيمة الشيء تتغير بتغير الزمان والمكان، خاصة في العلاقات الدولية والنظام الدولي الحالي بشكل خاص، فالعولمة التي قربت المسافات واخترقت الحدود وسيادات الدول، مما جعل العالم عبارة عن قرية صغيرة، هذا ما يحعلنا نتساءل عن مدى تأثير هذه التطورات على أهمية البحر المتوسط؟

أ. **الأهمية الجيوسياسية:**

البحر المتوسط: الأهمية الحضارية والاستراتيجية.

لا يختلف إثنان في الأهمية التي يكتسبها البحر المتوسط، فتاريخه الحضاري دليل قاطع على ذلك، لكن السبب الرئيسي لقيمة البحر المتوسط هو مركزية موقعه في الكرة الأرضية، هذا ماجعل السياسيات الدولية وسياسيات جميع الوحدات السياسية في النظام الدولي تولي اهتماما بأن يكون لها علاقة بالبحر المتوسط من أجل خدمة مصالحها الحيوية[xvi].

وحسب المعيار الجغرافي، تطل على حوض البحر المتوسط مجموعة من الدول القارية يصل عددها إلى 19 دولة ودولتين جزيرتين؛ وفي قارة إفريقيا توجد كل من مصر، ليبيا، تونس، الجزائر والمغرب، بينما في قارة أوروبا فهنالك كل من إسبانيا، فرنسا، إيطاليا، سلوفينيا، كرواتيا، البوسنة والهرسك، جمهورية يوغوسلافيا الفيدرالية، ألبانيا واليونان، أما في قارة آسيا، فهناك تركيا، سوريا، لبنان، إسرائيل والسلطة الفلسطينية. بينما الدولتان الجزيرتان فهما قبرص ومالطا. بالتالي توجد 21 وحدة سياسية في حوض البحر المتوسط.

لكن هناك اختلاف كبير بين الباحثين والاستراتيجيين ورجال السياسية في الدول المتوسطية، حول مفهوم البحر المتوسط والمتوسطية، والدول التي يحق أن نطلق عليها اسم متوسطية، حتى تستفيد من المزايا الموجودة في المنطقة، وبالتالي ما هي حدود البحر المتوسط؟ وهل البحر الأسود تابع للبحر المتوسط؟ حيث نوقشت هذه المسألة كثيرا أيام الحرب الباردة عندما كان الاتحاد السوفييتي يشكل قوة متوسطية، من خلال اعتبار البحر الأسود تابع للبحر المتوسط، ويمكن إيجاد عدة تعريفات وتحليلات في هذه النقطة، فالأطلس الجيوسياسي يبن أن كل من البحر الأسود والأدرياتاكي وبحر إيجة وهي كلها تابعة للبحر المتوسط، بحيث يقول "Fernardes Broudal": "إن البحر المتوسط ليس فقط بحر وإنما هو سلسلة من البحار[xvii].

وعرّف الاتحاد الأوروبي البحر المتوسط حيث يرى أن الدول المتوسطية تقتصر فقط على الدول التي تتألف منها الشراكة الأوروبية المتوسطية والتي شاركت في مؤتمر برشلونة، بحيث تشمل البلدان الأعضاء الخمسة عشر (في ذلك الوقت) في الاتحاد الأوروبي واثنتي عشرة دولة من منطقة البحر المتوسط الشرقية والجنوبية وهي: قبرص، مالطا، المغرب، الجزائر، تونس، مصر، الأردن، دولة إسرائيل والسلطة الفلسطينية

ولبنان وسوريا وتركيا. أما ليبيا فلم تنظم رسميا؛ وبعد زوال الصراع بين الشرق والغرب وتحول النظام الدولي إلى الأحادية القطبية، انتهج تعريف جديد للبحر المتوسط في الاستراتيجيات الدولية، بحيث تم توسيع هذا التعريف، بحيث أصبح المتوسط أو المتوسطية تمتد من جبل طارق إلى البحر الأسود عبر البلقان، وهذا بسبب تغير الأحداث الدولية والتي أصبحت تؤثر في المنطقة بشكل عام[xviii].

يشكل البحر المتوسط أحد المجالات الجيوستراتيجية الأكثر حساسية في العلاقات الدولية، ليس فقط لتوسطه ثلاثة قارات (أوربا وشمال إفريقيا وغرب آسيا)، ولكن بالأساس لكونه معبر يصل المحيط الهندي بالأطلسي، كما يشمل أيضا خطا بحريا للنفط القادم من الخليج لأروبا وأمريكا الشمالية..، فهو الشريان الحيوي للتجارة الدولية... خاصة وأنه كان دوما كذلك مع أنه حوض امتاز بالصراعات والحروب والتنافس والتعاون أيضا[xix].

ولقد حظي البحر المتوسط بمكانة متميزة مع بداية القرن العشرين بعد أن أصبحت قناة السويس عملية مما جعل البحارة ينتقلون عبرها بدل من الدوران عبر رأس الرجاء الصالح، كما كان هذا الحوض مجالا للتنافس في ظل الحرب الباردة، بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي اللتان تنافستا حول هذه المياه الدافئة بشكل يجعل عدد من المفكرين الاستراتيجيين يعتبرون هذه المنطقة وما حذاها قلب العالم النابض Strategic Heartland [xx].

أما بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية التي تعتبر القوة المهيمنة في العالم، والتي لم تترك منطقة في العالم وكانت متواجدة فيها، بالتالي كيف لا تكون متواجد في منطقة تعتبر استراتيجية وتشرف على مصالحها في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا إذا كان منفصلا على مقوّم الشرق الأوسط، ففي الاستراتيجية الأمريكية البحر المتوسط يتجاوز المفهوم الأوروبي له، بحيث يمتد من موريتانيا في غرب إفريقيا، إلى أفغانستان في وسط آسيا، وبالتالي البحر المتوسط يشمل أيضا منطقة الآزور وبلدان آسيا الوسطى، أما بالنسبة لبريطانيا فهي تتكلم عن الشرق أوسطية التي تبدأ من جزيرة مالطا وتصل إلى حدود إيران وتشمل العالم العربي والإسلامي[xxi].

البحر المتوسط: الأهمية الحضارية والاستراتيجية.

فالولايات المتحدة الأمريكية وبإدراكها لأهمية البحر المتوسط أصبحت تنافس بريطانيا وفرنسا (القوى التقليدية والاستعمارية في المنطقة)، على السيطرة على هذا المجال الحيوي، فأمريكا لم تعد إلى سياستها الانعزالية بعد الحرب العالمية الأولى، بحيث توجهت نحو المنطقة العربية عبر المتوسط، وبمضي الزمن واجهت واشنطن مشكلات الصراع بين الحكومات العربية وعدم الاستقرار السياسي ومخلفات عهود السيطرة البريطانية–الفرنسية وتخوف العرب من «الإمبريالية الجديدة» ونمو القومية الراديكالية وانقسام الحرب ما بين ثوريين ومحافظين وهكذا ففي خلال الفترة القصيرة التي شهدت الوجود الأمريكي في العالم العربي ازداد سوء وضع أمريكا نتيجة لشكوك قطاعات واسعة من العرب في حقيقة نواياها: فلقد عززت مؤسساتها العسكرية في منطقة «الحزام الشمالي» وأصبحت لها قواعد كثيرة في البلدان العربية وأسطول قوي في كل من البحر المتوسط والمحيط الهندي[xxii].

وباقتراب أمني فيمكن القول بأن الولايات المتحدة الأمريكية التي ترى أن أمنها مرتبط باستقرار وأمن منطقة البحر المتوسط، هذا ما جعلها تتخذ بعض الإجراءات والاستراتيجيات من أجل ذلك، أما سياستها الأمنية الجديدة في منطقة حوض البحر المتوسط يشرف عليها الأسطول السادس الأمريكي وحلف شمال الأطلسي، وكل منهما يؤدي أدوارا أمنية تكمل أدوار الطرف الآخر من أجل المحافظة على مصالح الولايات المتحدة الأمريكية في هذه المنطقة.

ب. الأهمية الاقتصادية:

إلى جانب الموقع الجغرافي الخاص بالبحر المتوسط أهميته الجيوسياسية، فإنه يحتوي كذلك على ثروات استراتيجية تعد حيوية بالنسبة لاقتصاد الدول الغربية الصناعية، وتتمثل هذه الثروات خاصة في النفط والغاز اللذان تزخر بهما منطقة المغرب العربي– ليبيا والجزائر تونس– والخليج العربي –العراق ودول مجلس التعاون الخليجي– وكذا منطقة بحر قزوين (إيران، أذربيجان، تركمنستان وكزاخستان)، وهنا يبرز دور البحر المتوسط كمعبر رئيسي للسفن حاملات النفط والأنابيب النفطية والغازية إلى دول أوروبا الغربية والولايات المتحدة مرورًا عبر قناة السويس ومضيق جبل طارق؛ وهذه الأهمية ليست وليدة الظروف الراهنة، وإنما حازها البحر المتوسط منذ القدم باعتباره البحر الذي يتوسط العالم القديم حيث كان حلقة

وصل بين منتجات الشرق الأقصى (التوابل والحرير من الصين والهند) والجنوب (التوابل والعطور من اليمن والحبشة والذهب والريش والعبيد من مناطق الساحل الإفريقي) ومنتجات مصر، فارس، الهلال الخصيب وشمال إفريقيا من جهة، ومنتجات شمال أوروبا (ديد، برونز، صوف، أسلحة، عبيد)، إلخ ...من جهة ثانية، مما نتج عنه من ازدهار عدة موانئ متوسطية كـ: بيروت، الإسكندرية، طرابلس، بجاية في الجنوب وبرشلونة، جنوة، بيزا، البندقية والقسطنطينية في الشمال[xxiii].

وبعد اكتشاف النفط في السنوات الأولى من القرن 20م في إيران والعراق، ثم في الثلاثينيات في شبه الجزيرة العربية، وأخيرا في شمال إفريقيا في الخمسينيات، تدافعت القوى (الكبرى الولايات المتحدة، بريطانيا وفرنسا) إلى المنطقة للتنقيب عن النفط وتكريره وتأمين نقله نحو بلدانها وكذلك بيعه بأسعار ملائمة لمصالحها؛ منذ بداية استخراج هذه المادة الأولية الهامة حتى الخمسينيات والستينيات من القرن 20م.

ومع العلم أن احتياطي النفط والغاز في المنطقة العربية جنوب البحر المتوسط مقارنة مع الاحتياطي العالمي، كما قدره الأخصائيون سنة 1994م، يبلغ نسبة 60 % بالنسبة للأولى و 20 %بالنسبة للثانية، فإنه من السهل الاستشراف بتزايد أهمية البحر المتوسط كونها تحاذي الدول المنتجة للمحروقات في المغرب العربي وشبه الجزيرة العربية؛ ولقد قُدر في الثمانينيات من القرن 20م أن البحر المتوسط ينقل يوميًا عبر مياهه "حوالي أربعة (4) مليون طن، كما يقدر عدد السفن المارة فيه يوميًا، التي تزيد حمولتها على 100مليون طن، بنحو 2500 سفينة تجارية وحوالي 500 سفينة صيد، وذلك زيادة على الحركة الملاحية بين شواطئه الشمالية والجنوبية". وتتم حركة الملاحة التجارية في البحر المتوسط بين ضفتيه (المواد الطاقوية باتجاه الضفة الشمالية) وأوروبا (المواد الغذائية والخدماتية باتجاه الضفة الجنوبية) الدول العربية، إسرائيل وتركيا، هذا بالإضافة إلى الملاحة بين المحيطين الأطلسي والهندي[xxiv].

ومن المؤكد أن الغرب سيزداد اعتمادا على مصادر الطاقة في هذه المنطقة، وأمن الطاقة مسألة حيوية، مثل ضمان أن تظل مصادر الطاقة في هذه المنطقة، وأمن الطاقة مسألة حيوية، مثل ضمان أن تظل مصادر النفط والغاز في متناول اليد بحرية من دون قيود على توريدها أو تذبذبات ضخمة في الأسعار

البحر المتوسط: الأهمية الحضارية والاستراتيجية.

ناتجة عن اضطرابات في المنطقة أو ابتزاز سياسي، والولايات المتحدة الأمريكية أصبحت أكثر اعتمادا على واردات نفط الخليج على الرغم من أن النسبة المئوية للاعتماد لا تزال ضعيفة إذا ما تم مقارنتها بتلك التي تربط أوروبا واليابان، وبصرف النظر عن مصدر واردات الولايات المتحدة الأمريكية فإن صادرات النفط سلعة عالمية فلا يمكن السماح لقوة معادية للولايات المتحدة أيا كانت بالسيطرة عليها، ولا بالتلاعب بأسعارها أو استعمالها أداة للابتزاز الاقتصادي أو استخدامها سلاحا رئيسيا سياسيا أو اقتصاديا بما يلحق الضرر بالغرب، وأن التصدي سيكون صارما[xxv].

وإن البحر المتوسط رغم أنه لا يشكل سوى 01 % من المسطحات المائية في العالم، إلا أنه يستحوذ على نسبة 28 % من حركة الشحن العالمية[xxvi]؛ وهو بمثابة قطعة وصل بين القارات الثلاث، ويمثل طريقا عالميا، كما أن تكوينه الجيولوجي ساعد على أن تكون موانئه أكثر عمقا مما يساعد ويسهل حركة السفن[xxvii].

ويعرف عن المنطقة في النشاط التجاري الدولي أنها مخزن للموارد الرئيسية التي هي شريان اقتصاديات القوى الكبرى، فإلى جانب الموارد الطاقوية التي تحتوي عليها منطقة الشرق الأوسط، فإن هناك موارد أخرى كانت أحد الأسباب في تطور اقتصاديات الدول الأوروبية الواقعة على الضفة الشمالية من الحوض التي تستورد زيادة على النفط والغاز، الفوسفات والحديد من المغرب والجزائر، هذه الدول تتحكم وحدها في 2/3 من ثروات المنطقة.

وإذا علمنا أن السوق الأوروبية المشتركة تعد إحدى أكبر الكتل الاقتصادية في العالم علم أن أهمية البحر المتوسط كطريق بحري حيوي تتوقف أهميته جزئيا بإغلاق قناة السويس؛ ويؤدي إغلاق القناة إلى ارتفاع تكاليف الشحن، فمثلا في الفترة التي أعقبت حرب 1967 بين إسرائيل والدول العربية، ارتفعت تكاليف الشحن بما يزيد على 500 مليون جنيه، كما كانت خسائر فترة إغلاق القناة تمثل خسارة مستمرة لأوروبا، ولعدد غير قليل من الدول الإفريقية والآسيوية، وللدولة صاحبة القناة؛ وبازدياد اعتماد أوروبا على نفط الخليج العربي، تزداد أهمية القناة و بخاصة إذا علمنا أن اقتصاد أوروبا لا يمكنه أن يؤدي وظيفته أكثر من شهرين بدون نفط الخليج العربي وحيث لا تزيد خطط الطوارئ عن هذه المدة و هذا يبين

أهمية البحر المتوسط لتجارة الدول العربية المتوسطية سواء المصدرة منها للنفط والغاز أو المعادن، أو المستوردة لاحتياجاتها من الغذاء، أو المعادن، أو الأسلحة أو لممارسة أنشطة اقتصادية فيه كصيد الأسماك وغيرها[xxviii].

وهذا النشاط الاقتصادي في المنطقة عاد بالسلب على النظام الايكولوجي والبيئي للبحر المتوسط، بحيث يتعرض هذا الأخير للتلوث بفعل الصناعة والزراعة والمراكز المدنية، وينظر إلى مصادر التلوث هذه باعتبارها مشاكل بيئية رئيسية في الغالبية الساحقة من دول المنطقة (الوكالة الأوروبية للبيئة، سنة 2005)، والواقع أن تبادل التدفق المائي المحدود يجعل البحر المتوسط بالغ الحساسية لتراكم الملوثات، فبالإضافة إلى المصادر البؤرية الساحلية، تتجلى مجموعة من مصادر التلوث الواقعة داخل اليابسة وملوثات أخرى تنتقل عبر الأنهار المتعددة التي تصب في البحر المتوسط، وجدير بالذكر أن الطائفة المتنوعة من المواد الكيميائية المستخدمة في تصنيع مجموعة كبيرة من المنتجات المنزلية والصناعية وضمن المواد البلاستيكية والملدّنات ومواد التوضيب ومبيدات الآفات والأسمدة والمذيبات، وفي تصنيع عدد كبير من المنتجات الخطيرة الأخرى، تطرح خطرا جديا في المنطقة. والواقع أن عددا كبيرا من المصانع القائمة على طول الخط الساحلي تعمد بانتظام إلى ضخ آلاف الأطنان من النفايات السامة مباشرة في المياه. وإذ ذلك يمكن التثبت من أن حوض المتوسط أصبح اليوم واحدا من الأحواض شبه المغلقة الأكثر تلوثا في العالم[xxix].

الخاتمة:

تبيّن هذه الورقة المعنونة: "البحر المتوسط: الأهمية الحضارية والاستراتيجية"، الأهمية التي يختص بها حوض البحر المتوسط على المستوى الحضاري باعتباره مهد الديانات السماوية الثلاث (اليهودية- المسيحية – الإسلام) على مر التاريخ، ومركز إشعاع ثقافي وعلمي منذ القديم؛ أما على المستوى الاستراتيجي، فالبحر المتوسط يتوسط ثلاث قارات (إفريقيا-أروبا- آسيا) وبذلك هو يشكل المعبر الرئيسي للمواصلات البحرية بين المحيطات (الهادي- الهندي – الأطلسي) عن طريق جبل طارق وقناة السويس، هذا ما زاد من أهميته الجيوسياسية، كما أن البحر المتوسط ذو أهمية اقتصادية، ذلك أن الدول

البحر المتوسط: الأهمية الحضارية والاستراتيجية.

المحيطة به تزخر بثروات طبيعية مهمة لاقتصاد الدول الصناعية الغربية سيما في الميدان الطاقوي (النفط والغاز) والميدان الزراعي (القمح – الزيوت – الكروم – القطن ... الخ).

فكل ذلك جعل من البحر المتوسط ذو أهمية جغرافية وجيوسياسية وحضارية وتاريخية واقتصادية، كما جعلها محط أطماع سياسات القوى الكبرى في مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية.

---

[i] الهادي مصطفى أبو لقمة ومحمد علي الأعور، الجغرافيا البحرية. ط.2، ليبيا: الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، 1999، ص.19.

[ii] أنور عبد الحليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب. الكويت: عالم المعرفة، 1990، ص.54.

[iii] *Hatem AKKARI, La Méditerrané Médiévale Perceptions Et Représentation, Paris: Maison Neuve Et Larousse -Alife- Les Editions De La Méditerrané, 2002, P.54.*

[iv] عبد القادر رزيق المخادمي، الاتحاد من أجل المتوسط – الأبعاد والآفاق. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2009، ص-ص.16-18.

[v] محمد إبراهيم حسن، دراسات في جغرافية أوروبا وحوض البحر المتوسط. الإسكندرية: مركز الإسكندرية للكتاب، 1999، ص.219.

[vi] *Paul PALTA, Méditerranée: Défis Et Enjeux, Canada: l'Harmattan, 2000, P.12.*

[vii] *Abis SEBASTIEN, Entre unité et diversité la méditerrané plurielle, la France: Fondation Méditerranéenne D'Etudes Stratégiques, 2004. P.7*

[viii] لطفي عبد الوهاب يحي، مقدمة في نظم الحكم عند اليونان والرومان: دراسة في حضارة البحر الأبيض. ط.2، الإسكندرية: دار نشر الثقافة، 1958، ص-ص.7-9.

[ix] جمال مختار، تاريخ إفريقيا العام-حضارات إفريقيا القديمة. م.1، للجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ إفريقيا العام اليونسكو، باريس: جون أفريك، 1985، ص.21.

[x] محمد صغير غانم، التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط. الجزائر، لبنان: ديوان المطبوعات الجامعية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1986، ص.18.

[xi] المرجع نفسه. ص.32.

[xii] المرجع نفسه. ص.52.

[xiii] أرشيبالد لويس، القوى التجارية والبحرية في حوض البحر الأبيض المتوسط: (500- 1100م). تر. أحمد محمد عيسى، القاهرة، نيويورك: مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، د.س.ن، ص.87.

[xiv] المرجع نفسه. ص.97.

[xv] *Reland Courtinat, La Piraterie Barbaresque En Méditerranée, xvi–xix Siècle, Edition Jacques Gandini, 2002, P.7.*

[xvi] بيير سيليريه، الجغرافيا السياسية والجغرافيا الاستراتيجية. ط.1، تر. أحمد عبد الكريم، دمشق: الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، 1988م، ص.7.

[xvii] *Didier ORTTOLAND, Et Jean Biere RIRAT, Atlas Géopolitique Des Espaces Maritimes, Frontière, Energie pêche et environnement, Paris: Edition Technique, 2008, P.69.*

[xviii] *Nagy LASZLO, La Sécurité Dans La Région Méditerranéenne Sécurité En Europe Centrale, Bourse De Recherche Individuelle De l'OTAN Et Du Partenariat, P.11.*

[xix] *Khader BICHARA, L'Europe Et La Méditerranée: Géopolitique De La Proximité, Paris: l'Harmattan, 1995, P.13.*

[xx] أمحند برقوق، الإشكاليات الجديدة للأمن في المتوسط. قسم العلوم السياسية والعلاقات الدولية جامعة الجزائر، المعهد الدبلوماسي والعلاقات الدولية، وزارة الخارجية، ص.2.

[xxi] *Jean SERANDOUR, La Nouvelle Donne Géopolitique Et Géostratégique En Méditerrané, Marseille: Rapport Présenté A L'Académie D'Aix, 2002, P.2.*

[xxii] أحمد عبد الرحيم مصطفى، الولايات المتحدة والمشرق العربي. الكويت: عالم المعرفة، 1978م، ص.8.

[xxiii] أحمد كاتب، خلفيات الشراكة الأوروبية – المتوسطية، مذكرة ماجستير غير منشورة. جامعة الجزائر، كلية العلوم السياسية والإعلام، قسم العلوم السياسية والعلاقات الدولية، السنة الجامعية: 2000-2001، ص.20.

[xxiv] المرجع نفسه. نقلا عن:

- Alain GRESH, Et Dominique VIDAL, Golfe, Clefs Pour Une Guerre Annoncée, Paris: Le Monde Editions, 1991, P.7 and Georges MUTIN, "Les Hydrocarbures du Monde Arabe: Une Richesse Inégalement Répartie", In DIEM (Dossier des Images Economiques du Monde), André GAMBLIN (dir), Maghreb–Moyen-Orient, Mutations, Paris: SEDES, 1995, P. 295.

[xxv] محمد بوضياف، السلم الأمريكي في منطقة البحر الأبيض المتوسط، مذكرة ماجستير غير منشورة. جامعة الجزائر، كلية العلوم السياسية والإعلام، قسم العلوم السياسية والعلاقات الدولية، السنة الجامعية: 2002-2003. ص.47.

[xxvi] *Jean SERANDOUR, La Nouvelle Donne Géopolitique Et Géostratégique En Méditerranée, Op. Cit, P.2.*

[xxvii] *Mare NOSTRUM, Dynamique Et Mutations Géopolitiques De Le Méditerranée, Canada: L'harmattan, 2000, P.9.*

[xxviii] خير الدين العايب، مرجع سبق ذكره. ص.25.

[xxix] ديفيد سانتيو، وغاليا فياض، البحر الأبيض المتوسط: من التدهور المنتظم إلى المعافاة، نداء لحماية البحر. لبنان: مختبرات غرينبس المتوسط، 2007، ص.15.